جدلية الهوية و التغيير: المجال التربوي أ نموذجا

د.احمد عماد الدين خواني/ جامعة سطيف

أ. زهراء زرقين/ جامعة باتنة

الملخص

الهويّة لفظ مشتقّ من "الهُوَ"، وهويّة الشيء عينيّته وتشخّصه وخصوصيّته أي ما به يكون الشيء هو وهي "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (الجرجاني، **2004** ص156). وللهويّة "علاقة بالتطابق مع الذات عند شخص ما أو جماعة اجتماعيّة ما في جميع الأزمنة وجميع الأحوال، فهي تتعلّق بكون شخص ما أو كون جماعة ما قادرا أو قادرة على الاستمرار في أن تكون ذاتها وليس شخصا آخر أو شيئا آخر" (روبنز،، ص **700**). وتتبني فكرة الهويّة على مبدأ الاستمرار والوحدة في مقابل التغيّر والكثرة أو التعدّد .والهويّة الثقافيّة لمجموعة ما أو شعب هي القدر الثابت والمشترك من السمات والخصائص الاجتماعيّة والنفسيّة والتاريخيّة.. المتماثلة التي تميّزها عن غيرها.

كيف يمكن للمجال التربوي أن يكون فضاء جدليا بين الهوية الثقافية للمجتمع في حالته المتغيرة؟

أشار " محمود العالم " إلي أهمية الهوية في تشكيل الشخصية الفردية والمجتمعية (محمود أمين العالم: 1996، 19)، وهذا ما أكد عليه " عابد الجابري " حين رأي أنه " لا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة علي نشدان العالمية إلا إذا تجسدت مرجعتيها في كيان تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن: (الجغرافية والتاريخ)، الدولة: (التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة)، والأمة: (النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة" (محمد عابد الجابري 1998: 14)، كما أشار "الجابري " في موضع آخر إلى أن " الهوية الثقافية هي حجر الزاوية في تكوين الأمم، لأنها نتيجة تراكم تاريخي طويل، فلا يمكن تحقيق الوحدة الثقافية بمجرد قرار، حتى لو توفرت الإرادة السياسية " (محمد عابد الجابري، 1995: 12).

إن المفهوم السوسيولوجي للهوية قائم على تعريف وتمثل الجماعات لنفسها وصيغ فهمها للروابط التي تقيمها مع غيرها، ولما تعتقده من طبيعة كينونتها؛ أي ما يمثل بالنسبة لها ضرورة لوجودها، فيستعمل مفهوم الهوية في العلوم الاجتماعية، وفي السوسيولوجيا على الخصوص منذ عقود، وهو مفهوم يشير تحديدا إلى الوعي الذي يميز الأفراد بعضهم عن بعض وأيضا الخصائص التي تتميز بها جماعة ما، وتجعلها كيانا متمايزا عن باقي الجماعات. اهتم السوسيولوجيون خاصة بدراسة الهويات الجماعية للجماعات والشرائح الاجتماعية، والجنوسة، والمهن، والعائلة؛ ولذلك فالهوية سيرورة معقدة، وديناميةمركبة ذات أبعاد متعددة (محمد الغيلاني، 2013)، فتحدد السوسيولوجيا المعاصرة مصادر متنوعة للهوية، فمنها الجنوسة والتوجه الجنسي، والجنسية، والمنطلقات الإثنية، والطبقة الاجتماعية؛ فالسوسيولوجيا تركز على نوعين من الهوية : النوع الأول :الهوية الاجتماعية التي تتضمن أبعادا جماعية، وتجارب مشتركة ومنظومة قيم ومعايير، تمثل نماذج إرشادية للجماعة ولأعضائها . النوع الثاني: الهوية الذاتية (الهوية الشخصية). وفي ضوء ما سبق يمكن تحديد مشكلة المداخلة في التساؤل الرئيس التالي: **كيف يمكن للمجال التربوي أن يكون فضاء جدليا بين الهوية الثقافية للمجتمع في حالته المتغيرة؟**

1.الهوية وصناعة الذات:

لا تستمد الهوية كينونتها من ذاتها فقط، بل من المفارق لها أيضا؛ أي مما ينفصل عنها وليس فقط مما يتصل بها، ومن ثم لا معنى لمطلب الهوية بمعزل عن التميز والاختلاف اللذين يمثلهما الآخر. وكلما بدت الهوية مطلبا داخليا، فإنها بشكل ما تعكس مطلبا خارجيا؛ إن الآخر بحاجة لتمايزنا عنه ليفهم أكثر ذاته وكينونته. ولذلك بقدر ما تتجه الهوية باتجاه التوحد بقدر ما تتجه نحو المزيد من التعدد، فكلما كان سعينا نحو التميز قويا، كان هذا التميز علامة على مزيد من الهويات. ولذلك تعتبر الهوية في ذاتها دعوة مستمرة لمزيد من الهويات. لا معنى لمطلب الهوية بمعزل عن الآخر، وبالقدر نفسه، فالوجود لا يتحقق خارج هذا المطلب، بهذا المعنى تبدو مقولة التضحية بالهوية من أجل الوجود ضد منطق الوجود نفسه (محمد الغيلاني، 2013).

تلعب المسافة بين الأنا والآخر دورا في وعي الهوية، في انغلاقها أو انفتاحها؛ إذ لا تتحقق للهوية توازناتها من خلال الذات فقط، بل أيضا من خلال الآخر. المغاير حالة انتماء وجودية لا تمثل بالضرورة نقيضا، وإنما امتداد في التاريخ، والمجتمع، والقيم، والعيش المشترك. هذا المغاير هو صورة عاكسة لأنماط وروابط اجتماعية تنتمي إلى جملة المعايير التي تساعد على التصنيف الاجتماعي وإنتاج المواقف والتمثلات. فالجماعات الاجتماعية، تمثل صورة ما من صور الوجود الممكنة اجتماعيا. ولذلك، فالهوية ليست ما عليه الذات فحسب، ولكن أيضا ما عليه واقع الوجود المشترك، ليست هناك هوية مغلقة قابلة للحياة (محمد الغيلاني، 2013). التمسك بالذات والبقاء مع الآخر هو ما يجعل الهويات قابلة للاستمرارية؛ فالهوية ليست بضاعة جاهزة، بل هي تجربة إنسانية خاضعة لصيرورة العيش مع الآخر. فالهوية حركية مستمرة في التاريخ. ولابد أن تكون هذه الهوية ذات معنى، ولكي تكون كذلك، فلابد لها أن تعكس حقيقة الذات، وأن تكون مصداقا لها، بالقدر نفسه الذي تعكس فيه علاقة تلك الذات مع الآخر. هكذا، فالهوية هي محصلة علاقة الذات مع ذاتها ومع الآخر.

لذلك، مثلت الهوية على مدار التاريخ استجابة لمبدأ وجودي، وكل مجتمع هو بالنهاية محصلة هوية ما. الهوية في بعدها المدني هي القدرة على التعايش مع الآخر لا مجرد تحمله على مضض. تتشكل الهوية في سياق العلاقة التي نقيمها مع الآخر كشريك في وجودنا أو كحاجة وجودية ممتدة في صلب العلاقة القائمة بيننا وبينه، وبهذا المعنى ليست الهوية معطى نهائيا حتميا خارجا عن سيطرتنا، وإذا كان الدين، مثلا، مكونا من مكونات الهوية، فإننا نحن الذين نختار هذا الدين .

فهناك بعض الدول مثل استراليا اشتكت من المادة الإعلامية للتليفزيون الأمريكي علي الأطفال ؛ لخطورتها علي فقدان الانتماء، وقد عبرت وزيرة الثقافة الكندية عن انزعاجها من الهيمنة الثقافية الأمريكية، حيث إن 60% من برامج التليفزيون الكندي مستوردة، وأن 90% من الأخلاق ليست كندية، كذلك اشتكت فرنسا من هيمنة اللغة الإنجليزية والتأثير علي الهوية الفرنسية(8)، كما أن الصينيين واليابانيين لم يهملوا لغتهم الأم ولم يجعلوا الثقافة الأمريكية تؤثر في حياتهم الاجتماعية والثقافية، بل احتفظوا بثقافتهم من عادات ولغة وتقاليد، وبذلك ظلوا محافظين علي هويتهم الثقافية (فوزية العشماوي: 2007، 444).

أن الفرد يبدأ في إدراك هويته في سن مبكرة، فقد أثبتت إحدى الدراسات أن السن الطبيعي لإدراك الطفل لهويته القومية تبدأ ببلوغه 6 –7 سنوات، ويزداد إدراكه بتقدم عمره، وبالتالي فإنه يمكن إكساب الفرد الاتجاهات الإيجابية نحو الولاء للوطن في سن مبكرة (عصام أحمد حسين)، و يشير " سعد الدين إبراهيم " إلي دور التعليم في تدعيم الهوية بقوله " من المفترض أن تقوم المدرسة بدور يعتد به في بث وتنمية الوعي والهوية لدي الطفل العربي، ففي رحابها يتعلم الأطفال لغتهم العربية كتابة وقراءة، ويكتسبون قواعدها، ويكتشفون وظائفها التعبيرية، لاسيما من خلال الأناشيد والقصص ودروس القراءة والمواد الاجتماعية التي تدعم الهوية (سعد الدين إبراهيم: 54،1986)، وحاولت دراسة " عطية أبو الشيخ" الوقوف علي واقع الهوية الثقافية العربية في الفكر التربوي والتحديات التي تواجها ،وخاصة العولمة، ثم انتهت الدراسة إلي وضع تصور مقترح للخروج من الأزمة الثقافية التي يعشيها الفكر التربوي العربي (عطية إسماعيل أبو الشيخ: 2000، 645)، أما دراسة "محمد المنوفي وياسر الجندي " (محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفي الجندي: 2003، 209)، فهدفت التعرف علي أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي وتحديد مظاهر هويتنا الثقافية، ثم انتهت إلي مجموعة من الإجراءات العملية لبلورة تكامل ثقافي عربي لمواجهة العولمة، كما جاءت دراسة " حمدي المحروقي " (حمدي حسن عبد الحميد المحروقي: 2004 150) لتؤكد علي دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة علي الهوية الثقافية، حيث توصلت إلي رؤية تربوية لمواجهة التداعيات السلبية للعولمة التي تسهم في تطوير الهوية الثقافية العربية الإسلامية.

وكذلك جاءت دراسة " أحمد العطوي" (أحمد عيد العطوي: 241 28)، لتؤكد علي هذه الأزمة التي تعيشها الهوية الثقافية، فأشارت إلي وجود مجموعة من العوامل أدت إلي فقدان وضعف الهوية الثقافية العربية، الأمر الذي أدي إلي وجود هذه الأزمة التي يعانيها الشباب العربي في هويته الثقافية، ثم جاءت بعض الدراسات مثل دراسة " ماجدة صالح وماجدة حافظ ": (ماجدة محمود صالح وماجدة مصطفي حافظ: 2008، 75)، لتلفت نظر القائمين علي تربية الطفل المصري لأهمية دور الثقافة في تنمية الهوية الثقافية ومحاولة تقديم بعض المقترحات التي قد تساعد في دعم ثقافة الطفل ومصريته والاعتزاز به للتصدي لغزو الثقافات المتعددة التي تحاصره في كل مكان، وأوصت الدراسة بضرورة الاهتمام ببرامج إعداد معلمة رياض الأطفال من خلال استحداث مقررات لتنمية الوعي الثقافي لديهما، وتأكيد وتنمية الأصالة لدي المعلمة.

2.التغيير وتفكيك الهوية الذاتية:

إن العولمة توحي فعلاً بوجود خيار شخصي لكل أحد لكنه" خيار بين السيئ والأسوأ كمن يخير بين الجلوس عن اي عمل وبين عمل لا يسد سوى جزء من حاجاته الضرورية أو كالذي حكم عليه بالموت ثم خير بين ان يموت شنقاً أو باطلاق الرصاص عليه، في الصين التي تجري عولمتها الآن، عاملات يعملن في المصانع العتيدة، ليس لهن مرتبات، وانما يعملن لقاء ملء بطونهن ليس أكثر! " (بكارعبد الكريم،2001: 70)، من التسميات التي تصدرت عناوين بعض الكتب العربية والأجنبية، منها كتاب (أوهام الهوية) للباحث الفرنسي جان

فرانسو بايار الصادر سنة 1996، وكتاب (الهويات القاتلة) للأديب اللبناني أمين معلوف الصادر سنة 1999، وكتاب)مآزق الهوية) هذه التسمية وردت ضمن عنوان (حديث النهايات... فتوحات العولمة ومآزق الهوية) للناقد اللبناني علي حرب الصادر سنة 2000، كما تصدرت هذه التسميات، عناوين فصول بعض الكتب، مثل تسمية (قوة الهوية (التي وردت في كتاب عالم الاجتماع السياسي الأمريكي مانويل كاستلز الموسوم (العصر المعلوماتي... الاقتصاد والمجتمع والثقافة) الصادر سنة 1996 .

وقد التفت إلى هذه المبالغة الباحث الفرنسي جان فرانسوا بايار في كتابه)أوهام الهوية)، واعتبر أن العالم الحديث بات يتسلط عليه وسواس وقلق عام يتعلق بالهوية، وحسب قوله: (يتسلط على العالم الحديث وسواس تلاشي التمايزات، فهو يخشى توحيد الأشكال، ويشعر بالتالي بقلق عام متعلق بالهوية، تأكيداً لهذا الجانب، وترجيحاً لهذا المنحى، يرى عالم الاجتماع البريطاني أنطوني جيدنز في كتابه (عالم جامح كيف تعيد العولمة تشكيل حياتنا أن العولمة تشكل) (سبباً لإحياء الهوية المحلية في الكثير من أرجاء العالم، وإذا سألنا عن سبب مطالبة الأسكتلنديين بمزيد من الاستقلال عن المملكة المتحدة، أو عن سبب ظهور حركة انفصالية في مقاطعة كيبيك الكندية، فإننا لن نجد الجواب في تاريخها الحضاري فقط، إن الحركات القومية المحلية تظهر استجابة للنزوع نحو العولمة، إذ تتضاءل سيطرة الدولة.

إن العولمة قامت على تكديس الأرباح وتعظيم المكاسب وزيادة النفوذ بقطع النظر لدى أغلبية الناشطين في العولمة عن مدى مشروعية العمال التي ستحقق، وبقطع النظر كذلك عن الآثار التى ستساهم بها تلك الأعمال في تلوث البيئة أو هدم القيم والأخلاق أو تفكك الأسرة..كون أن هذه الظاهرة هي ظاهرة علمية مادية بحتة ليس لها علاقة بالجانب الديني أو الأخلاقي (بكارعبد الكريم،2001: 76)، ففي هذا الجانب أشار السيد ماتسورا مدير عام اليونسكو على هامش أعمال المؤتمر الإقليمي لتقيم منتصف العقد للتعليم الذي عقد في العاصمة القطرية الدوحة إلى بعض المسائل المهمة من" قبيل بذل الجهود والعمل الجاد للوصول إلي الأشخاص الذين لايمكن الوصول إليهم لتلبية حاجاتهم التعليمية...مشيرا إلي أن حوالي 6 ملايين طفل لايجدون فرصة الالتحاق بالمدارس في المنطقة العربية إضافة إلي حالات التسرب الخطيرة التي تحدث بين الطلاب خاصة الفئات المهمشة منهم. كما نبه إلي خطورة عدم إتاحة الفرصة للفتيات للالتحاق بالمدارس ونبه إلي أن 3 من أصل 5 منهن لا يجدن فرصة الالتحاق بالتعليم الابتدائي في المنطقة العربية " (صحيفة الراية، 2008).

أضحى التعليم أداة من أدوات الحركة والتغير، وإكساب المهارات والاتجاهات المختلفة التي تمكن الأفراد من النمو الحقيقي، وبالمثل فلقد أصبح من أبرز أغراض التعليم اليوم تنمية الوعي والإدراك لدى أفراد المجتمع بما يدور حولهم وتوجيههم للعيش في مجتمع متغير ومتجدد.وبما أن العالم يعيش ثورة علمية وتكنولوجية كبيرة، كان لها تأثيٌر على جميع جوانب الحياة المختلفة، أصبحت مؤسسات التربية و التعليم مطالبة بالبحث عن أساليب ونماذج تعليمية وتربوية جديدة لمواجهة العديد من التحديات على المستوى العالمي،حيث انه يوجد في كل ثقافة من الثقافات العالمية

وفي كل نظام من نظم معارف الأمم الكبيرة بعض العناصر المفيدة وبعض العناصر الضارة ،بعض الأمور الموافقة لحاجتنا وبعض الأمور المخالفة لها فيترتب علينا أن نقتبس من كل واحدة منها ما يفيدنا وما يساعدنا على النهوض والتقدم دون أن نتقيد بإحداها على وجه الانحصار. من هنا تدعو الحاجة إلى إعادة النظر في البنى المعرفية والهياكل التربوية، لاسيما المعلم، لزيادة وعيه الثقافي واستعادة دوره الريادي في المجتمع، إضافة إلى قدرته على توظيف تقنيات عصر العولمة في حياته اليومية والعملية، وإعداده لعالم لم يعد كما كان من أجل إنتاج جيل مبدع مبتكر للمعرفة العلمية يحقق نقلة حضارية نوعية وذلك من خلال الإعداد الجيد والمستمر للمعلمين من أجل التفاعل مع التكنولوجيا وتقنياتها واستغلالهم لكم المعلومات الهائل المتدفق إليهم عبر الانترنت والفضائيات لرفع مستوى العملية التربوية وعقد ورش عمل مكثفة للمعلمين تمكنهم من استخدام الحاسوب وتوظيفه في العملية التربوية.كما من الضروري إدخال العولمة ومضامينها في المناهج التعليمية كي لا يعيش المعلم والطالب في حالة انفصام عن الواقع.

3.تمثلات طلبة جامعة سطيف للهوية (دراسة تطبيقية)

خلاصة:

اصطبغ مفهوم الهويّة في الفضاء العربي خاصة بظلال التوجّس من الأزمنة الحديثة والتأزّم والقلق اللذين رسّخهما الاعتقاد بوجود مؤامرة تحاك باستمرار للإسلام والمسلمين. بذلك تلاشى تدريجياً كل النزوع البنائي الذي عرفته البلاد العربية بعد مرحلة الاستقلال السياسي وما بدأ تحقيقه من إنجازات وطنيّة أو قوميّة بدافع إثبات الذات عبر الآليّة الإيديولوجية القاضية بضرورة التغيير والتسريع في حركة التاريخ (احميدة النيفر: 2013)، أمّا في الطور الحالي، فقد اكتسى مفهوم الهويّة قدراً كبيراً من الالتباس إذ هو من زاوية علم الاجتماع مفهوم حديث يكثر دورانه في عدة مجالات لكنّه يبقى مع ذلك أعسر من أن يعرّف بصورة دقيقة. ما يمكن أن يُقتصر عليه ابتداءً مع الإقرار بحداثة المفهوم وبنيته المركبة هو القول بأنّ الهويّة الحضارية لمجتمع أو بلد هي أشدّ تعقيداً من هويّة الأفراد. ذلك أنّه لو قلنا عن تلك الهويّة، إنّها الشخصيّة المميّزة لها وجملة السمات الجغرافيّة والتاريخيّة والمدنيّة التي تنفرد بها وكلّ نقاط الاستدلال التي تتيح التعرّف عليها، فإنّ ذلك لن يلغي طابع الالتباس المميّز لها. إذا اعتمدنا لتحديد الهويّة مقاربة اشتقاقيّة مستفيدة من التراث اللغوي والفكري، فإنّنا سنجد أنّها عبارة مولّدة اشتقّها المترجمون القدامى من الـ "هو" لينقلوا بواسطتها، حسب أبي نصر الفارابي، فعل الكينونة المتداول في غير العربية للدلالة على ذات الموجود (احميدة النيفر: 2013).

المراجع:

1. أحمد عيد العطوي: التعليم والهوية الثقافية العربية إلي أين، مؤتمر " مناهج التعليم والهوية الثقافية " مجلد 1 2002.
2. احميدة النيفر، الهويّة في زمن "ثقافة التعدد"، http://www.mominoun.com/arabic.

3. بكار،عبد الكريم،(الدكتور)، العولمة طبيعتها،وسائلها،تحدياتها،التعامل معها،مكتبة دار الحياة الحديثة، الطبعة الثانية، 1422هـ،2001.
4. سعد الدين إبراهيم: أساليب تنمية الوعي القومي العربي، ندوة الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، 1986/4/28.
5. صحيفة الراية، يومية سياسية جامعة تصدر عن شركة الخليج للنشر والطباعة ،قطر ،العشرين من شباط .2008
6. عصام أحمد حسين: إدراك الهوية القومية لدي الطفل المصري، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس.
7. عطية إسماعيل أبو الشيخ: الهوية الثقافية في الفكر التربوي العربي وتحديات العولمة، مؤتمر " مناهج التعليم والهوية الثقافية "، 2000.
8. فوزية العشماوي: مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية (اللغة والتعليم، والتاريخ)، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، في الفترة 27– 30 مارس 2007 .
9. ماجدة محمود صالح وماجدة مصطفي حافظ: أثر أنشطة تربوية ثقافية لتنمية الهوية القومية للطفل المصري في مرحلة ما قبل المدرسة، مجلة كلية التربية، جامعة بنها، مجلد 18، ع 73، يناير 2008 .
10. محمد الغيلاني، الهوية والاختلاف في قضايا الدين والمجتمع: الهوية هي الاختلاف، http://www.mominoun.com/arabic.
11. محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، ع 228 / بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير 1998.
12. محمد عابد الجابري: مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995 .
13. محمود أمين العالم: الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، القاهرة: دار المستقبل العربي، 1996

identite2014@yahoo.fr

تأثير التصحر على الهوية الفردية والجماعية لسكان السهوب من البدو الرحل
دراسة حالة ولاية البيض

أ/ **بوزيد بوحفص** / **جامعة ورقلة**
أ/ **شماني أحمد**/ **جامعة ورقلة**

ملخص الدراسة:

اعتمد سكان المناطق السهبية في عيشهم على الرعي و تربية المواشي والأغنام كنشاط رئيسي، لكن بعد التصحر الذي ضرب المنطقة منذ فترة التسعينيات لعوامل طبيعية مثل: استمرار الجفاف لسنوات متتالية وعوامل بشرية مثل: الاستغلال اللاعقلاني للمساحات الرعوية وعدم احترام مواسم الرعي التي تنظمها الدولة، و كذلك تنصل الحكومة من مسؤوليتها في مراقبة عملية الرعي، ويرجع ذلك للحالة الاستثنائية التي عاشتها الجزائر بصفة عامة بسبب الوضع الامني المتدهور في تلك الحقبة، ما جعل تنظيم النشاط الرعوي من الامور الثانوية. نجم على هذا